



الصـادقــة صــول هاتـشــويـل
(لالـة زلـيـخـة أو سوليكا)
إيقونـة العذارى اليـهوديات المغربيات

حنان السقاط*

تولي جميع الأقليات البشرية، الدينية والعرقية والإثنية وغيرها، أهمية خاصة لوضع المرأة داخلها لاعتبارات عديدة، تصب جميعها في غاية واحدة: الحفاظ على المقومات الذاتية الجماعية، وترسيخها والسمو بها لحد التقديس قصد توريثها. وغني عن التذكير أن العمليات جميعها لازمة للسكينة الروحية والمعنوية والمادية للأقلية، بصرف النظر عن كونها وحيدة ضمن أغلبية مطلقة كما هو حال الأقباط في مصر، أو واحدة ضمن أقليات متنوعة كما هو الوضع في لبنان، وبشكل أقل حدة في سوريا والعراق. إن الأقليات مسكونة بهوس الاندثار، ومن ثمة فهي في الغالب ترى في المرأة أهم المتاريس المستديمة و المضمونة للحفاظ على الوجود والقيم المعنوية والأسانيد الثقافية. ونجد في الأقلية اليهودية المغربية خير تمثل لكل الخصائص المشتركة بين الأقليات. والحق أن الجماعات اليهودية المغربية جزء لا يتجزأ من المجتمع المغربي، ومن ثمة لا يمكن فهم تطور المجتمع المغربي فهما رصينا دون فهم دينامية تطور تلك الجماعات، وهو على كل حال تطور داخلي مس جميع مكونات المجتمع المغربي. لا بد من الإشارة إلى رزمة من المعطيات على ضوئها تتضح أكثر بعض ملامح حياة اليهوديات المغربيات:

*أستاذة باحثة – كلية الآداب – فاس سايس.

أولا: إن نسبة مهمة من اليهود المغاربة كانوا يعيشون في الحواضر، وبالضبط في حي الملاح، وهو مجال مغلق، وأكثر إطباقا على النساء. فغالبية اليهوديات كن لا تغادرنه إلا لماما، ولفترة قصيرة، وتحت حماية مقربين من الأسرة.

ثانيا: مما لا شك فيه أن نسائم الحداثة التي سربها المد الامبريالي خلال القرن التاسع عشر مست اليهود أكثر من المسلمين. وقد بدت العديد من مؤشرات التغيير العصري في النساء اليهوديات : في الملبس واستعمال الأدوات العصرية والخروج لسوق العمل والانفتاح على الأجنبي... ونجد نموذجا معبرا عن هذا الانخراط المبكر في استعداد الفتيات اليهوديات للذهاب للمدرسة العصرية، ذلك أنه انطلاقا من 1877 فتحت الأليانس Alliance Israélite Universelle أول مدرسة للفتيات في طنجة، تلتها مدارس أخرى وصلت إلى إثنا عشرة وحدة عند مباشرة فرنسا للحماية على المغرب.

ثالثا: وهو عنصر على غاية قصوى من الأهمية: تميزت اليهوديات المغربيات بحس انتمائي للجماعة عالي جدا. وهذا الانتماء للجماعة جعلهن خاضعات بالسليقة للضوابط الداخلية للجماعة اليهودية، وكذلك للضوابط المنظمة للعلاقات مع الأغلبية المسلمة. لذلك كان طبيعيا أن لا تخرج من بين صفوف اليهوديات المغربيات امرأة ثائرة أو حتى متمردة ورافضة للوضع. وعليه لم تحفظ الذاكرة الجماعية اليهودية، فبالأحرى المسلمة، باسم امرأة يهودية خرجت على النسق التقليدي المعمول به. إن جميع المثقفين اليهود الذين كتبوا سيرهم الذاتية أفاضوا في الحديث عن أمهاتهم، وشددوا في أحاديثهم على وداعتهن وخضوعهن للتقاليد والأعراف، وكذلك لسلطة الوالد والأخ والزوج والابن والربي، وكل من له سلطة معنوية ومادية.

إن هذه المعطيات تؤكد على أن وضع المرأة اليهودية كان شبيها بوضع مثيلتها المسلمة. إنه إجمالا وضع اجتماعي أكثر مما هو ديني. فكما أنه ليس في الدين

الإسلامي الخام ما يدعو إلى دونية المرأة، فإنه ليس في الدين اليهودي ما يجعلها تحت وصاية الذكور.

ولأن الاكتظاظ بات السمة الأساسية للحياة داخل الملاحات، فإن الوضع الدوني للمرأة ازداد حدة زمن الحماية. إن جميع الدراسات السوسيولوجية التي همت المدن العتيقة والجديدة على السواء، أكدت على أن وضع النساء ساء أكثر. ومع ذلك، ظلت المرأة تلعب نفس الأدوار لصالح الجماعة، بل إن وظائفها تعززت بعد تغلغل الإيديولوجية الصهيونية تدريجيا داخل الأوساط الشعبية اليهودية. لذلك اجتهد الصهاينة في إعادة صياغة العديد من الحكايات الشعبية اليهودية المغربية ليعطوها معاني موجهة تخدم بالدرجة الأولى قضيتهم على حساب قضية الاندماج واستمرارية التعايش الإسلامي اليهودي فوق أرض المغرب. لنترك جانبا الشق التمهيدي، ولنركز اهتمامنا على قضية مهمة، بل مقدسة عند اليهود المغاربة، أساسا لأنهم أقلية تعيش وسط أغلبية ساحقة مزهوة بسمو قيمها الدينية. وككل الأقليات، فإن أي إضعاف عددي كان يعتبر نوعا من التهديد الوجودي. وعليه فإنه في غياب حملات منظمة وممنهجة ترمي إلى أسلمة الجماعة اليهودية، فإن الزواج المختلط، وهو بالضرورة بين امرأة يهودية ورجل مسلم، قد شكل على الدوام اللعنة الإلهية الواجب دينيا وأخلاقيا واجتماعيا تفاديها.

إن الزواج المختلط كان يعني بكل بساطة نفي الحق في الوجود والاستمرارية، والإقرار بدونية الدين اليهودي أمام الملة الإسلامية، وهو ما ليس بالوارد إطلاقا. وكانت الأمهات على وجه الخصوص تؤمن بأن أي تنازل ولو رمزي في هذا الموضوع بالذات، يعني الفشل في جميع المواضيع الأخرى التي لها صلة بتربية البنات، وهو ما يعني كذلك الفشل في الحياة كلها. والواقع أن الجماعات اليهودية المغربية جعلت الأساس في الأنوثة اليهودية هو أن تولد الفتاة يهودية لتحيى يهودية، وتنمو يهودية، وتتربى يهودية، وتتزوج وهي يهودية أي مع يهودي، وتخدم زوجها وهي

يهودية، وتلد يهودية، وتربي فلذات كبدها وهي يهودية، وتغرس فيهم القيم اليهودية، وتزوجهم وهي يهودية... وتموت وهي يهودية. وإذا نجحت في مهامها التربوية، فهي من دون أدنى شك يهودية صالحة جزاؤها الجنة. لهذه الاعتبارات جميعا، اكتسبت قصة الآنسة صول هاتشويل أهمية قصوى في المخيال اليهودي المغربي، وتحولت إلى إيقونة سامية بطلتها من باتت تسمى الصادقة لالة زليخة.

تجدر الإشارة إلى أن قصة "الصادقة صول" هي إحدى الأساطير المؤسسة للشخصية اليهودية المغربية. والقصة مترسخة في وجدان اليهود المغاربة تحكيها الأمهات لبناتهن منذ الصغر لتغرس في شعورهن ولا شعورهن مسؤولية الحفاظ على نقاء الجنس العبري، ورفع راية الدين اليهودي داخل وسط مسلم معاد (ينتقل الانتماء الديني في اليهودية عن طريق الأم، فاليهودي هو من أمه يهودية). ومن دلائل ترسخ هذه القصة وشيوعها بين الأوساط اليهودية، استمرار تداولها لحد الآن، وكذلك كثرة الدراسات الخاصة بها[1]. بطلة القصة فتاة تسمى صول هاتشويل، والتسمية الشائعة لها في الأوساط الشعبية اليهودية هي لالة زوليخا. وقد عاشت في النصف الأول من القرن التاسع عشر بطنجة، وهي مدينة لا يوجد بها ملاح (بمعنى حي مسيج تحيط به أسوار)، ويسكن اليهود في جوار المسلمين. وقد كان أبواها فقيرين ومتشددين في الامتثال للتعاليم الدينية، ومبالغين في الحفاظ على الخصوصيات اليهودية، ومن ثمة حرصا على أن لا تكون لها علاقات صداقة مع أقرانها المسلمين. وقد كان لصول رأي آخر في الموضوع، حيث طورت علاقات صداقة مع فتاة مسلمة تدعى الطاهرة، وكانت تقضى جل وقتها في بيت جارتها المسلمة، خاصة وأن والديها دأبا على تعنيفها. وتشدد الرواية على جمال بطلتنا، حيث تفيض في

[1] - Sara Leibovici, “Sol Hachuel, la Tsadikkah ou la force de la foi”, in Pardès, n. 4 1984, p. 133-146 ; Said Sayegh, L’autre juive, Ibis Press, Paris, 2009 ; E. Gottreich and D.J. Schroeter, Jewish Culture and Society in North Africa, Indiana University Press, Indianapolis, 2011; Sharon Vance, The Martyrdom of a Moroccan Jewish Saint, Leiden: Brill, 2011.

وصف محاسنها بشكل يجعلها فريدة زمانها، وجامعة لآيات الحسن المميزة للجنس اليهودي. وعند بلوغها سن السادسة عشر، تُيم بغرامها أخ صديقتها الطاهرة، مما حدا بوالديها إلى تشديد الرقابة عليها وضربها باستمرار بشكل مبرح. وأثارت المعاملة السيئة عطف الطاهرة، فاقترحت على صول أن تعتنق الإسلام لتتخلص من جبروت والديها. والظاهر أن صول لم تقبل بالاقتراح إلا أنها لم تعبر عن رفضها بشكل قاطع، فاعتبرته نوعا من المواساة. وحين اشتد عنف الأبوين عليها، لجأت عند عائلة صديقتها طالبة الحماية، فاستغلت الطاهرة الحادثة لتفعيل آخر حلقة من خطة "شيطانية" حضرت لها منذ مدة. فقد ذهبت عند باشا المدينة ليبارك إسلام الفتاة اليهودية، ويقوم بحمايتها من انتقام اليهود، مما استوجب استدعاء المعنية بالأمر لتأكيد الرغبة وتدوينها. وحين وصولها إلى دار الباشا، اكتشفت صول "الخديعة"، فسعت إلى شرح موقفها، فلم يُجدها ذلك نفعا لأن الطاهرة استقدمت شهودا لتأكيد ادعائها. وقد تجندت الجماعة اليهودية في المدينة لوضع حد لما اعتبرته في بداية الأمر مهزلة، إلا أن فقهاء المدينة رفضوا مناقشة جوهر القضية على اعتبار أن صول نطقت بالشهادة، ومن ثمة لا يقبل تراجعها عن قرارها؛ وكل تراجع يعتبر ردة يعاقب عليها شرعا بالقصاص. ويبدو أن باشا المدينة أدرك خطورة الموقف، فسعى إلى التبرؤ من القضية فقرر إرسال صول إلى فاس ليحسم فقهاؤها في الأمر [2].

وفور وصولها للحاضرة العلمية، شدت الضنينة اليهودية بجمالها وأدبها جميع من سعوا لإيجاد حل للقضية، فهي في مرافعتها حافظت على هدوئها وصرامتها، و لم تتردد في عرض قيم الدين اليهودي، وإبراز سمو الرسالة الموسوية. وقد أغرم بها ابن السلطان فسعى إلى إغرائها فوعدها في حالة إسلامها بوضع ثروات المملكة وكنوزها رهن إشارتها، وجعلها ملكة للبلاد. وحين اتضح له تشبث صول بموقفها، لجأ لسند ربيي مدينة فاس ليقنعوها بالتراجع ولو بصفة كاذبة. وبالرغم من محاولات بعض

---

[2]- M. Rey, Souvenirs d'un voyage au Maroc, Au Bureau du journal d'Algérie, Paris, 1844, p. 150-153.

رجال الدين اليهود الذين شرحوا لها الموقف وبرروا الردة باعتبارات فقهية، فقد ظلت ثابتة على موقفها. وحين هددها القضاة بالقصاص، عبرت عن استعدادها للشهادة وهو ما جعلهم يكنون لها التقدير والاحترام، إلا أنه لم يمنعهم من الأمر بتطبيق شرع الله لردتها عن الإسلام. وأبانت صول خلال الأيام التي سبقت إعدامها عن أخلاقيات عالية حيث أكثرت من الصلوات ومواساة كل من جاؤوا لدعمها. ويوم إعدامها، تجمهر في أكبر ساحات فاس حشد كبير، وحين لاحظت تردد الجلاد في القيام بمهمته، نهرته قائلة "لا ترتعد وقم بواجبك". وبعد وفاتها، طالب يهود المدينة بجثتها، فدفنوها في حفل رهيب، وجعلوا منها "صادقة"، أي امرأة صالحة وذات كرامات (يحكى أن السلطان أصيب مباشرة بعد إعدامها بشلل في رجله، فدأب على زيارة قبرها لطلب المغفرة). وقد خلد العديد من شعراء الملحون ذكرى الصادقة، من أهمهم يعقوب بورديغو ربي مدينة مكناس.

والمثير بحق هو أن المتون الإسلامية المعاصرة لا تشير للواقعة لا من قريب ولا من بعيد. للإشارة فالحدث وقع أيام مولاي عبد الرحمن. هل يعني هذا الغياب أن قصة صول هي فقط من نسج خيال يهود فاس؟ في هذا الحالة كيف يمكن تفسير وجود قبر خاص بهذه البطلة في مقبرة فاس؟ ومهما يكن فإن القصة تختزل العديد من الكليشهات القوية التي اكتسبت مع تعاقب العقود فعالية سيكولوجية واجتماعية جعلتها من قبيل المسلمات :

- أولها: فعالية الملاح، فهو ليس بالسجن كما يحلو لبعض الرحالة والمستشرقين وصفه، وإنما مجال لحماية اليهود من شرور الاختلاط مع غيرهم. لو كان في طنجة ملاح، لما اضطرت صول لأن تأخذ لها صديقة مسلمة، ولوجدت في بنات ملتها المواساة الحقيقية.
- ثانيها: إن المسلمين مجبولون على الغدر والخديعة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالغراميات العابرة. إن المسلم بهذا المعنى مستعد لكل شيء من أجل المتعة

الجنسية. وهذه مصيبة يشترك فيها الرجل العامي، والمنتمون للخاصة بمن فيهم السلطان وأبناؤه.

- ثالثها: إن رجال الدين اليهود يستمدون مصداقيتهم من ابتعادهم عن الدوائر المخزنية، فكلما اقتربوا منها كانوا على استعداد "لبيع أنفسهم للشيطان".

وحاصل القول إن الصادقة لالة زليخة تمثل في المخيال اليهودي المغربي رمز التضحية من أجل نصرة قضية تعتبرها الجماعات اليهودية غاية في السمو : الامتناع عن الزواج مع غير اليهودي لتكثير سواد اليهود والحفاظ على نقاء الدم اليهودي. وما يستوجب التشديد عليه هو بالضبط ما كتب على شاهد قبر الشهيدة اليهودية. كتب ما يلي باللغة الفرنسية:

Ici repose Mlle Solica Hatchoue l- Née à Tanger en 1817 Refusant de rentrer dans la religion islamisme - Les Arabes l'ont assassiné Fez - En 1834. Arrachée de sa famille tout le monde Regrette cette enfant Sainte.

مما لا ريب فيه أن كلمة "عرب" كتبت في النصف الأول من القرن العشرين، وقد تعمدت كتابتها للدلالة على أن "العرب" هم قتلة الأطفال والنساء.... ومن نافلة القول إن من كتبها هم يقينا صهاينة مغاربة جعلوا نصب أعينهم تهجير الجماعات اليهودية المغربية. والحق أنهم نجحوا في مساعيهم، وبتروا الجسم المغربي من جزء من مكوناته، وكذلك من جزء كبير من تراثه.